الحضارة الإسلامية

ماهي الحضارة ؟ الحضارة هي النشاط الفكري الإنساني في إطار القيم الروحية والأخلاقية المستمدة من العقيدة الإسلامية. فالحضارة تجسيد عملي للنشاط الفكري عند الإنسان عبر اجتيازه معارج الحياة، وتاريخ الحضارة سجل لتطور عطاء هذا الفكر ومدى فعاليته في مختلف نواحي الحياة، من اقتصادية وسياسية واجتماعية وإدارية وحربية وعمرانية وأدبية، كما تتناول الحضارة إلى جانب ذلك وسائل انتاج الإنسان ومستوى معيشته، وفنونه الجميلة، ومعتقداته الدينية، وكيفية تحصيله علومه، وطرق صياغة آدابه، ووسائل كفاحه المستمر مع نفسه أولاً، ومع الطبيعة ثانياً من أجل البقاء.

وهكذا فإن مقياس الحضارة الإنسانية هو إمكانية صراع الإنسان مع نفسه ومع الطبيعة، وطرق أدائه لحاجاته المختلفة، واختصاره الزمن لبلوغ حياة أبقى وأنقى وأرقى[1].

الفرق بين الدراسة الحضارية والدراسة التاريخية:

تهتم الدراسة الحضارية بمجموع القيم الاجتماعية والأنماط الثابتة المرتبطة التي تتحكم في نشاط المجتمع، وتكون له شخصيته الحضارية بكل ما يتصل بهذه الشخصية من مفهومات الحياة والموت، والطبيعة التاريخية، والعلاقات الاجتماعية، ومصير الإنسان.

(١) د/ أحمد الشريف، دراسات في الحضارة الإسلامية، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ١٢ - ٢٠ .

ولذا كانت الدراسة الحضارية بمفهومها العلمي تميل إلى النظرة الكلية التي من شأنها أن تكشف عن ظواهر الحياة من كافة جوانبها لتبعث التاريخ الاجتماعي في صورة شاملة.

وعلى هذا فإن هناك صلة وثيقة ما بين دراسة التاريخ ودراسة الحضارة من حيث الاهتمام بالحياة الإنسانية في ماضيها، والعناية الخاصة بواقع الأجيال السالفة في مختلف أحداثه وظواهره.

غير أن هناك فارقاً واضحاً بين اهتمام الدراسة التاريخية بواقع الأجيال السالفة، واهتمام الدراسة الحضارية بذلك الواقع. ويتمثل هذا الفارق في أن لكل من الدراستين منهجاً خاصاً في تناول الماضي واستحضار معالمه، وفي تصوير الظواهر والملابسات(١).

فدراسة التاريخ كانت وما تزال قائمة على ذلك المنهج التقليدي، الذي يتسم باستقصاء الحقائق وتفاصيل الجزئيات. فالمنهج التقليدي يميل إلى التخصص وتجزئة الوحدة الموضوعية في حياة المجتمع، فالمؤرخ يكتفي عادة بجانب واحد من جوانب النشاط الإنساني لذلك العصر. ولكن الحضارة الإسلامية في كافة عصورها ومراحلها وحدة تاريخية متكاملة، كما أن الأصول الروحية والمادية التي قامت عليها هذه الحضارة ظلت ماثلة في كيان المجتمع الإسلامي في كافة العصور وحتى يومنا هذا.

وهكذا يتضح لنا قيمة الدراسة الحضارية، فهي لا تنهج منهج التاريخ في تفسير الأحداث وتصور الماضي، وهي تجمع بين العنصر التاريخي

(١) نفس المرجع، ص ٢٠-٢٧.

والعنصر الفلسفي، وتهتم قبل كل شيء بما بين الاتجاهات الاجتماعية من وجوه التفاعل والارتباط، فلا تعني دراسة الحضارة بالتفصيلات أو الجزئيات، وإنما تعني بالنظرة الكلية التي تتضح من خلالها شخصية المجتمع الحضارية ، وملامح نشاطه الإنساني في كل اتجاه من اتجاهاته.(١)

الفرق بين الحضارة والمدنية:

١ ـ أن الحضارة تتمثل في القيم الإنسانية التي يمكن أن تكون غاية في ذاتها. وبهذا يكون الجانب الحضاري من المجتمع يتألف من القيم الروحية والفلسفية، وكذلك القيم الفنية والأخلاقية، وبتعبير آخر تصبح الحضارة مقصورة على التكوين الوجداني للمجتمع ، بما في هذا معتقداته الدينية، ومفهوماته نحو الحق والخير أما المدنية فهي شيء يختلف عن الحضارة في طبيعته وأغراضه، فعلى حين تختص الحضارة بالنشاط الروحي والتكوين الوجداني للمجتمع نرى المدنية تختص بالنشاط العقلي والمدني. وعلى هذا يكون مدلول المدنية مقصوراً على ذلك النشاط العملي الذي يمارسه الفرد والمجتمع باعتباره وسيلة لا يقصد بها أكثر من التغلب على ضرورات الحياة وظواهر الطبيعة، وعلى ذلك تصير المدنية مشتملة على ما اكتسبته المجتمعات في تاريخها الطويل من خبرات وتجارب في سبيل التغلب على الضرورات المادية، والسيطرة على واقع الحياة سيطرة تكفل للإنسان الاكتفاء والاستقرار.

---

(١) د/ أحمد الشريف ، المرجع السابق، ٢٦ ـ ٢٧ .

٢ ـ إن الحضارة هي النشاط الاجتماعي الذي ترتبط بالجانب الروحي والعاطفي من الإنسان، ولا يسهل اقتباسه وانتقاله من مجتمع إلى آخر. وأن المدنية هي النشاط الاجتماعي الذي يرتبط بالجانب العقلي والمادي من الإنسان، وتسهل اقتباسه وانتقاله من بيئة إلى أخرى(١).

٣ ـ تختلف الحضارة عن المدنية من حيث طبيعة النمو والتطور، فالتراث الحضاري للمجتمع ينشأ وينمو في صورة طفرات تاريخية، بينما تراث المدنية ينشأ وينمو ويتطور في صور تدريجية أو تراكمية.

فالحضارة تتسع لتشمل المدنية بما تدل عليه من نشاط مادي ومعرفة تطبيقه، فالحضارة أعم وأشمل من المدنية لأنها تشمل كل ما ينطوي عليه الكيان الاجتماعي من مبادئ الدين والسياسة والاقتصاد والأخلاق والثقافة، أما المدنية فتعبر عما حققه الإنسان في واقع الحياة من خبرات عملية(٢).

والمدنية تمثل النشاط العملي المادي الذي يمارسه الفرد والمجتمع، باعتباره وسيلة للتغلب على ضرورات الحياة وظواهر الطبيعة، وبذلك تكتسب المدنية خبرات وتجارب للتغلب على الضرورات المادية والسيطرة على واقع الحياة سيطرة تكفل للإنسان الاكتفاء والاستقرار.

---

(١) نفس المرجع.

(٢) د/ أحمد الشريف، المرجع السابق، ص ٢٨ ـ ٣٠.

ولاشك أن لكل مجتمع حضارته التي هي قيمه العليا والتي هي غاياته، أما مدنيته فهي وسائله في واقع الحياة. ومن هنا يتبين لنا أن النشاط الإنساني يسير في اتجاهين الأول روحي ووجداني والثاني عقلي وعملي ونقصد بذلك (روحي ووجداني = الحضارة) و(عقلي وعملي = المدنية).

ومهما يكن من أمر فإن أبرز ما يتميز به المدنية الغربية المعاصرة هو استغلال العلم في سبيل السيطرة على قوى الطبيعة وظواهرها، استغلالاً من شأنه أن يمكن الإنسان من التحكم في ملابسات الواقع المادي. فقد سيطرت المدنية على ظواهر العالم الحسي وأخضعتها لإرادة الإنسان ومطالبه، فتغلبت على حواجز المكان والزمان، والغاء المسافات والحدود التي كانت تفصل بين المجتمعات البشرية بعضها عن بعض. وكان من نتيجة ذلك أن أصبح العالم المادي متقارب الأطراف، ولعل ثورة التكنولوجيا والمعلومات قد جعلت العالم أشبه ما يكون بالقرية الصغيرة.

ولا ريب أن الحضارة الإسلامية قد وجهها الإسلام وأظلها بظله وطبعها بطابعه، فالدراسات النظرية والعملية والأطعمة والأشربة والعقاقير والأسلحة والجنود والنشاط التجاري والبحري تدل على مساهمة الإسلام في كل ذلك مساهمة أكيدة وفعاله[1].

(١) نفس المرجع ، ص ٣٠ ـ ٣٧ .

أسس و مقومات الحضارة الإسلامية

ببعثة النبي ﷺ ودعوته إلى الإسلام بدأت تظهر حضارة جديدة مرتبطة بالإسلام كدين ودولة وتاريخ. ونبعت هذه الحضارة من أصول وأسس كان لكل منها دوره في نشأتها وخصائصها ومثلها أهمها القرآن الكريم والسنة المطهرة وأمة العرب واللغة العربية والشعوب الإسلامية والتأثيرات الأجنبية من الحضارة السابقة.

ولاريب أن أهم ركائز الحضارة الإسلامية هي الدين الإسلامي واللغة العربية. والدين الإسلامي يشمل القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

١ ـ الدين الإسلامي: انتشر الإسلام انتشاراً تلقائياً في أجزاء كبيرة من العالم لعدالته وسماحته، ولم يكره الإسلام أحداً على الدخول فيه، ووحد الإسلام بين العرب وبين الشعوب الأخرى فصبغها بصبغة واحدة على أساس من العقيدة ومبادئ الإسلام السمحة.

وهكذا اصطبغت الحضارة بصبغة دينية واضحة في تفكير أعلامها وأسلوبهم. ومن أهم أركان الدين الإسلامي القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

أ ـ القرآن الكريم: لاريب أن القرآن الكريم هو الأصل الرئيسي الذي نبعت منه الحضارة الإسلامية إذ كان المصدر الأساسي للإسلام الذي تنسب إليه، ولقد نزل القرآن الكريم على النبي ﷺ على مدى ثلاث وعشرين سنة التي ظل يدعو فيها إلى الله سبحانه وتعالى، وكان النبي

يتخذ كتبة يدونون الآيات عند نزولها، كما كان المسلمون يقبلون على حفظها عن ظهر قلب، وهكذا استخدم في حفظ القرآن الكريم وسيلتان هما الحفظ والتدوين، ثم قرر ترتيب سوره وآياته بشكل نهائي قبيل وفاة الرسول، وبدأ جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر من المدونات لدى كتبة الوحي وبمساعدة حفظته. وفي عهد عمر حفظ المصحف عند ابنته حفصة زوج الرسول ﷺ. وفي عهد عثمان دون منه نسخ وزعت في الأقطار ثم تداول المسلمون هذه المصاحف ونسخوا منها. ومازال المسلمون يحرصون على نسخ القرآن حتى لا يتعرض للخطأ والتغيير(١).

وفي القرآن الكريم يكمن سر أصالة الحضارة الإسلامية وعظمتها؛ فهو كتاب الله يهدي للحق، فيه خير البشرية، فهو يدعو إلى الوحدانية، وفي تعاليم القرآن سعادة البشر؛ إذ ينظم المجتمع على أسس سليمة تضمن له الأمن والرخاء والسعادة، فهو يضمن حرية الرأي والعقيدة ويدعو إلى التعارف والتحاب وينصف المرأة.

ب ـ السنة النبوية المطهرة: استوحت الحضارة الإسلامية سيرة النبي وسنته لتكون الأساس الثاني من أصول الدين الإسلامي. والإيمان بالنبي ﷺ هو ثاني شطري العقيدة الإسلامية. والسيرة محيطة بجوانب الحياة وأطوارها. وقد تخصص في كتابة السيرة علماء وقفوا حياتهم عليها. وقد أمر الرسول بكتابة كثير من سننه مثل خطبته يوم فتح مكة ورسائله

(١) د/ حسن الباشا، دراسات في الحضارة الإسلامية القاهرة ١٩٩٢ ص ٥ ـ ٨.

إلى الملوك وأحكام الزكاة وأحاديث النبي. وبفضل النبي وسنته طبعت الحضارة الإسلامية بهذا الطابع الذي يتمثل في حب الخير والعمل الصالح والصدق في المعاملة والإخلاص في العمل، والتسامح والرفق والحرص على العلم والتعمير والاتزان وغير ذلك من الصفات العديدة(١).

٢ ـ اللغة العربية: اختارها الله سبحانه وتعالى لتكون لغة القرآن الكريم، ومن ثم جاء القرآن الكريم بلسان عربي مبين. ومن ثم صبت الحضارة الإسلامية في وعاء اللغة العربية، وإلى هذه اللغة ترجمت معارف البشرية وتجاربها القديمة، وعندها نقلت الحضارة والثقافة الإسلامية إلى الشعوب الأخرى.

فاللغة العربية تمثل الأداة التي عبرت بها هذه الحضارة عن نفسها، وقد استطاعت أن تنتصر اللغة العربية في جميع البلاد التي فتحها العرب، فحلت محل اللغات القديمة كاليونانية والسريانية والقبطية وغيرها.

وأصبحت اللغة أداة حضارة عظيمة، وأصبحت لغة عالمية تصلح لكل زمان ومكان، لإنها لغة القرآن ولغة أهل الجنة، وقدساعدت اللغة العربية على توحيد الشعوب العربية والإسلامية.

ويتصل باللغة العربية الخط العربي الذي ازداد منذ ظهور الإسلام. واحتل الخط العربي مكان الصدارة بين الفنون الإسلامية الأخرى، والخط العربي مثل اللغة العربية يعتبر وسيلة التعبير عن الحضارة الإسلامية وعاملاً مهماً من عوامل الوحدة فيه.

---

(١) د/ حسن الباشا، المرجع السابق، ص ٧ ـ ٨.

واللغة العربية من أرقى لغات العالم وقد أصبحت عالمية يتكلم بها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، ويعبرون بها معارف غيرهم ويثبتون بها أفكارهم وعلومهم، وهكذا كانت اللغة العربية أداة سليمة ودقيقة للتعبير العلمي والفني[1].

٣ ـ أمة العرب: من الأسس التي قامت عليها الحضارة الإسلامية أمة العرب، فالنبي ﷺ عربي والصحابة عرب، والعرب هم أول من تلقى دعوة الإسلام وآمن بها وجاهد في سبيلها، وعلى يد العرب دخل الإسلام كثيراً من الأقطار، وانتشر بين سائر الناس، ومن ثم طبعت الحضارة الإسلامية بطابع عربي.

وكان للعرب قبل الإسلام حضارة لم تكن تقل عن حضارة غيرهم من الأمم، وكانت لهم لغة ناضجة اختارها الله سبحانه وتعالى لتكون لغة كتابة القرآن الكريم ﴿ **إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون** ﴾ كما كان لهم آداب راقية من شعر ونثر وقصص وخطابة وحكم وأمثال وكلها أمور لا تنمو عفوا ولكنها تنمو على مدى تاريخ طويل.

وكان للعرب صلات تجارية خارجية مع الأمم المتحضرة، ومن ثم كانوا على علم بالتطورات الحضارية، وتهيأت لهم الفرص للاقتباس من غيرهم. وهكذا اصقل العرب بفضل تاريخهم وخبراتهم وتجاربهم، وهُيئوا لحمل رسالة الإسلام ونشرها. ولو كان العرب همجاً كما زعم بعض المغرضين لما

(١) نفس المرجع، ص ١٠ ـ ١١.

استطاعوا القيام بأعباء رسالة الإسلام ، ولما نجحوا في نشرها هذا النجاح المذهل. كما ساعد العرب على القيام بحمل أعباء هذه الرسالة كونهم فرساناً مهرة، مما مكنهم من سرعة الحركة والانتشار في الأرض، علاوة على تحملهم الصعاب وتحليهم بالصبر والنشاط والثقة بالنفس والحكمة. وكان لهذا كله أثره في نشأة الحضارة الإسلامية وتكوينها وتطورها، وكان من الطبيعي أن يكون للعرب شأن كبير في إبداع هذه الحضارة التي نشأت في رحابهم وديارهم(١) .

٤ ـ الشعوب الإسلامية: كان للشعوب الكثيرة التي دخلت في الإسلام أثر في تكوين الحضارة الإسلامية، ذلك أن العرب قد فتحوا كثيراً من البلدان وامتدت دولتهم من الصين شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً، وهكذا انضوى تحت لواء الإسلام شعوب كثيرة كالفرس والهنود والروم والترك والمغول والبربر كان لهم ماضٍ حضاري كبير.

ولا شك أن هذه الشعوب قد أسهمت بتراثها الحضاري تارة، وبخصائصها التقليدية تارة أخرى في تشكيل الحضارة الإسلامية. فقد حافظ العرب على تراث هذه الشعوب وعملوا على تنمية تقاليدها الفنية والصناعية، وهكذا ساعدت الخبرات الفنية والثقافية والعلمية للشعوب المفتوحة في تشكيل الحضارة الإسلامية مع احتفالها بطابعها العربي وروحها الإسلامية الأصيلة(٢).

---

(١) غوستاف لوبون ، حضارة العرب، ص ٦٠ وما بعدها.

(٢) نفس المرجع ، ص ٦٥ ـ ٧٠ .

٥ ـ الإطار الجغرافي: بدأ نشوء الحضارة الإسلامية في بلاد العرب أولا حيث ظهر الإسلام، ثم أخذت تنمو في الأقطار التي فتحها العرب بعد ذلك والتي دخلها الإسلام، وكان من الطبيعي أن يكون للإطار الجغرافي الذي نمت فيه الحضارة الإسلامية أثره في تشكيلها.

وهذا الإطار الجغرافي يشمل رقعة متصلة من الأرض تمتد من الصين شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً، وهذه الرقعة ذات تضاريس مختلفة مما يؤدي إلى تنوع شعوبها وحيواناتها ونباتاتها ومنتجاتها، وهي غنية بثرواتها. وهكذا ظهرت الحضارة الإسلامية في بيئة غنية خصبة مكتفية بذاتها مما زودها بطابع الثقة والأصالة[١].

٦ ـ التأثيرات الأجنبية: لاشك أن الإطار الجغرافي قد هيأ الفرصة للحضارة الإسلامية ممامكنها من الإفادة من الأصالة والخبرات البشرية السابقة والمعاصرة وهيأ لها الحيوية وإمكانات الرقي والتطور. ذلك أن هذا الإطار الجغرافي كان مهد الديانات السماوية وموطن أقدم حضارات العالم، كما أنه كان ملتقى الطرق التجارية والتيارات الثقافية.

وقد أجمل فيليب حتى أهم التأثيرات الأجنبية في الحضارة الإسلامية فيما يلي:

١ ـ تأثيرات هلينية (يونانية) دخلت الحضارة الإسلامية عن طريق المدارس اليونانية في أنطاكية والأسكندرية ونيسابور وغيرها.

---

(١) د/ حسن الباشا، المرجع السابق ص ١٣.

٢ ـ تراث يهودي ومسيحي مستمد من التوراة والإنجيل.

٣ ـ تأثيرات إيرانية في مجال الإدارة والحكم والفنون.

٤ ـ نظم رومانية في شكل بيزنطي.

٥ ـ خليط من الثقافة الهندية والصينية مثل الأرقام الهندية، وصناعة الورق الصينية، ومهما يكن من أمر فإن هذه التأثيرات الأجنبية لم تكن عوامل أساسية في تكوين الحضارة الإسلامية، ذلك أن الأساس الذي قامت عليه الحضارة كان الثقافة العربية الإسلامية، والإرادة العربية النابعة من رأي سليم وحماس واعتزاز وثقة بالنفس، وروح الابتكار(١). وهذه العوامل جميعها أدت إلى ظهور الحضارة الإسلامية.

مراكز ازدهار الحضارة الإسلامية

تعددت مراكز ازدهار الحضارة الإسلامية. ففي مكة والمدينة المنورة وجزيرة العرب بعامة نبعت أصولها، وكملت أسسها الروحية والخلقية بفضل الإسلام.

وفي دمشق أخذت الحضارة الإسلامية تتشكل بمظاهرها المختلفة في عصر الخلافة الأموية. وفي بغداد عاصمة الدولة العباسية نضجت الحضارة ووصلت مستوى رفيعاً منذ أواخر القرن الثاني بعد الهجرة. وفي الأندلس ازدهرت الحضارة الإسلامية حتى نافست بلاد الأندلس بلاد الخلافة

(١) فيليب حتى، تاريخ العرب، ص ٣٠٦ ـ ٣٢٦.

العباسية. هذا ولم يقتصر ازدهار الحضارة الإسلامية على هذه البلدان، بل انتشرت في كثير من بلاد الإسلام مثل مصر وإيران والهند وتركيا وشمال أفريقيا ووسط آسيا .

مجال الحضارة الإسلامية

١ ـ تفوقت الحضارة الإسلامية في سرعة ظهورها وازدهارها بفضل الإسلام الذي كان التربة الصالحة والأساس الحقيقي لسائر المظاهر الحضارية والإسلامية.

٢ ـ عني الإسلام بتنظيم الدولة على أحسن الأسس وأفضل المبادئ، وحظي المجتمع الإسلامي بتقاليد وعادات تنبع من الفطرة السليمة وتتفق مع الروح الإنسانية.

٣ ـ ومنذ ظهور الإسلام وجد الاهتمام بالعلم والثقافة والحرص على التعليم حتى تفوق المسلمون على غيرهم من الشعوب، وتركوا بصماتهم في التراث المادي كالفنون والعمارة والصناعات والزراعة والتجارة.

التراث الروحي

إن أفضل ما اشتملت عليه الحضارة الإسلامية هو تراثها الروحي والديني أي الإسلام، ومصدر الإسلام هو القرآن والسنة النبوية الشريفة، وقد جاء الإسلام بالعقيدة الحقة الصحيحة التي تتلخص في الإيمان بأنه لا

إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ووحدانية الإسلام وحدانية سهلة خالية من التعقيد.

وأمر الإسلام بالتسليم بقضاء الله وقدره، والإيمان بالبعث والجزاء والثواب والعقاب. ولم يقف الإسلام عند حد العبادات، بل جاء بخير الدنيا، ووضع أسس مبادئ التنظيم السياسي والتشريع والاقتصاد والمعاملات، وبذلك وضع أسس الفلاح للبشرية. وحض الإسلام على حسن المعاملة والعدل.

وكان لفضائل الإسلام الفضل في انتشاره، أي أن الإسلام انتشر بفضل سماحته وتسامحه وعدله وتعاليمه الخيرة لما فيه سعادة البشرية.

وليس بالقوة كما ذكر بعض المستشرقين المغرضين، وقد رد عليهم كثير من المستشرقين مثل غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب(١).

أوربا في العصور المظلمة

يطلق اسم العصور المظامة في أوربا في الفترة ما بين سقوط الأمبراطورية الرومانية في الغرب أواخر القرن الخامس الميلادي وقيام نهضة العصور الوسطى أواخر القرن الحادي عشر.

وقد سادت أوربا في تلك الفترة المظلمة سحابة كثيفة من التأخر الحضاري، لأن سقوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب سنة ٤٧٦م جاء

(١) د/ حسن الباشا، المرجع السابق، ص ١٦ ـ ٢٢.

مصحوباً بقيام عدد من الممالك الجرمانية التي أقامتها بعض شعوب البرابرة مما أدى إلى انكماش الحضارة الرومانية تدريجيا في إيطاليا وأسبانيا وفرنسا (غاليا) وانجلترا، وغيرها من البلدان التي خضعت للرومان أيام سطوتهم.

وهكذا ذبلت المدن الرومانية وأقفلت المدارس أبوابها وانتشر الجهل، ولم يبق أثر للحضارة والمعرفة في غرب أوربا سوى بصيص ضئيل ينبثق من الكنائس.

وإذا كان التعليم قد انصف بطابع ديني في العصور الوسطى، فذلك يرجع إلى عدم وجود فئة لها رغبة في التزود ببعض المعرفة سوى رجال الدين، وذلك بحكم مركزهم وطبيعة وظيفتهم في المجتمع. ذلك أن وظيفة رجال الدين ومهمتهم في وعظ الناس وإرشادهم إلى الطريق السوي وإفهامهم روح الإنجيل وتعاليمه تطلبت من الكنيسة أن تعد رجل الدين إعداداً خاصاً يضمن القيام بمهامه على أحسن وجه. ولكن فهم النصوص الدينية والقيام بشرحها لعامة الناس يتطلبان الإلمام بقدر كاف من الدراسات الدنيوية وبخاصة اللغة اللاتينية. ومن هنا أصبح من الضروري تعليم رجل الدين تعليماً دنيوياً يتخذه أساساً لثقافته الدينية[1].

وقد بلغت العلوم الدنيوية في مدارس ذلك العصر أوسع آفاقها فيما عرف باسم الفنون السبعة الحرة، وهي التي انقسمت إلى مجموعتين:

(١) د/ سعيد عاشور، المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوربية، القاهرة ١٩٦٣. ص ٣٧-٣٨.

الأولى ثلاثية شملت النحو والبلاغة والجدل، والثانية رباعية ضمت الحساب والهندسة والفلك والموسيقى. أما المادة التي تناولتها هذه الفنون فكانت مستقاة.. من الكتب التي عاصرت الدور الأخير من الحضارة الرومانية القديمة، أي أن هذه الفترة هي التي شهدت غزوات البرابرة ونشرت ستاراً مظلماً كثيفاً فوق بلاد الغرب الأوربية. ولم تكن هذه المعلومات ذات قيمة لأنها سطحية ومختصرة(١).

ولما كانت الكنيسة قد أقرت تدريس الفنون الحرة في مدارسها، فإن ذلك كان على أسس مسيحية، لأن المدارس تحولت في غرب أوربا لإعداد وتخريج رجال الدين للقيام بمهامهم في المجتمع. كذلك يلاحظ أن كثيراً من الجرمان الذين أقاموا ممالك لهم في غرب أوربا أظهروا نفوراً قوياً من التعليم، حتى أن ثيودريك ملك القوط الشرقيين حرم إرسال أبناء القوط إلى المدارس، محتجاً بأن الصغير الذي يشب على الخوف من عصا المعلم لن تكون لديه في المستقبل الشجاعة الكافية لمواجهة السيوف والحراب.

وهكذا ازداد إشراف البابوية على توجيه التعليم ورسم سياسته، في العصور المظلمة، وأضحت المدارس الديرية والأسقفية تهتم بتعليم اللاهوت والكتاب المقدس والموسيقى الدينية وسير القديسين. وساعد على ضعف الدراسات الإنسانية والثقافة الراقية كراهية رجال الكنيسة في الغرب لها. فالبابا جريجوري العظيم اشتهر بكراهيته للدراسات التي لاتساعد على فهم العقيدة المسيحية، لأن دراسة تراث الوثنيين مضيعة

(١) د/ سعيد عاشور، أوربا في العصور الوسطى جـ٢ ص ١٢٤ ـ ١٢٥ .

للوقت[١].

ومن هنا يبدو أن الدراسة اللاهوتية (الدينية) قد تغلبت على الدراسات الإنسانية، وكيف كانت هيمنة الكنيسة في العصور الوسطى من العوامل الأساسية التي أدت إلى عدم ترك مجال للدراسات التلمية، لأن العقيدة المسيحية تقوم على أساس الإيمان في حين يعتمد العلم على التعقل. هذا إلى أن إصرار الكنيسة على توجيه الناس نحو الحياة الباطنية أعمى أنظار المعاصرين عن العالم الطبيعي المحيط بهم. فالقديس أوغسطين (٣٥٤م - ٤٣٠م) يبدي دهشته من أن الناس يذهبون بتفكيرهم بعيداً للتأمل في ارتفاع الجبال أو دراسة مدارات الكواكب ويهملون التأمل في أنفسهم. بل أن القديس أوغسطين نفسه يهزأ من فكرة كروية الأرض التي قال بها قبل ذلك اليونانيون. وإلى جانب هذا الانحطاط في التفكير العلمي انتشر الاعتقاد في الخرافات والمعجزات بين أهالي الغرب الأوربي في العصور الوسطى، حتى قضى السحر على البقية الباقية من المعرفة العلمية عند الأوربيين ولم يكن الروم البيزنطيون أحسن بكثير من الغرب الأوربي، إذ أغلق الأمبر اطور جستنيان مدرسة أثينا سنة ٥٢٩م وبذلك انطفأت شعلة أخرى من علوم اليونانيين وفلسفتهم، وفر إلى البلاط الفارسي جمع كبير من العلماء والفلاسفة[٢].

وهكذا نجد أنه في الوقت الذي أخذ المسلمون يقيمون بناءً حضارياً شامخاً ويسيرون بالحضارة البشرية سريعاً في طريق التقدم والعمران، كان

(١) د / أحمد الشريف، المرجع السابق، ص ٢٦ - ٢٧.

(٢) نفس المرجع.

الغرب الأوربي يعيش في ظلمات الجهل والتأخر والانحطاط الأدبي والعلمي والفني، فظلت أحوال الشعوب الأوربية حيث هي وساءت أكثر عما كانت عليه. أما في الجانب المادي من الحضارة فكانت معظم الأنحاء التي تعرف بوسط أوربا وغربها تكسوها الأحراش والمستنقعات، وتنتشر فيها الأمراض والأوبئة، وإذا وجدت ضياع (قرى) زراعية فإن أمر فلاحتها كان متروكاً للأقنان والعبيد وتضم معظم شعوب أوربا، في حين كان النبلاء والفرسان ورجال الدين يمثلون الأقلية المُنَعَّمة في المجتمع الأوربي.

لقد ظهرت في الغرب الأوربي حركة حضارية في أواخر القرن الثامن وأوائل التاسع للميلاد، ولكنها كانت فاترة قصيرة العمر سريعة الزوال، لأنها كانت مصطنعة اصطنعها شارلمان فلما مات ماتت معه أو بعده بقليل. هذا إلى أن هذه النهضة يطلق عليها اسم النهضة الكارولنجية، والتي وصفت بأنها ضيقة الأفق، واستهدفت خدمة الدين ورفع مستوى رجال الكنيسة، واقتصرت جهود أعلامها على إحياء جانب من التراث الكلاسيكي القديم، دون أن يحاولوا الابتكار أو التجديد. وزاد من انحطاط الحضارة الأوربية عقب وفاة شارلمان الأخطار الخارجية الهدامة التي تعرضت لها أوربا في القرنين التاسع والعاشر للميلاد، فعناصر الفايكنج التي كانت تسكن السويد والنرويج والدانمرك قامت بحركة توسعية أغارت على معظم بلدان أوربا، ودمرت المدن والأديرة والكنائس، مما عرض الغرب الأوربي لموجة كاسحة من الخراب والتدمير. وفي الوقت الذي كان الفايكنج يقومون بغاراتهم على غرب أوربا، إذ بجموع هائلة

من القبائل الآسيوية (الهنغاريون أو المجريون) يزحفون على وسط أوربا حتى وصلوا ألمانيا، وهم ينهبون ويخربون ويدمرون كل ما يجدونه[١].

وفي أواخر القرن الحادي عشر للميلاد أفاق الغرب من ظلمات العصور الوسطى ليجد نفسه أمام حضارة إسلامية شامخة البناء، لم تترك أدباً ولا علماً ولا فناً إلا أسهمت فيه بقسط وافر. وذهب طلاب العلم من الأوربيين إلى مراكز الحضارة الإسلامية لينهلوا من معينها الفياض، ويترجموا كل ما استطاعوا من علوم المسلمين ومؤلفاتهم، مما ترتب عليه قيام حركة حضارية شاملة في غرب أوربا سميت بالنهضة الوسيطة[٢].

ولم تكن هذه النهضة الأوربية في القرن الثاني عشر مثل النهضة الكارولنجية في القرن التاسع، وإنما جاءت نتيجة حركة طبيعية تضافرت عوامل عدة لازدهارها وانتعاشها، ولذلك جاءت هذه النهضة أطول عمراً، وأكثر استمراراً وأوسع أفقاً من نهضة القرن التاسع. كذلك لم يقف هدف النهضة الأوربية في القرن الثاني عشر عند حد رفع المستوى الثقافي لرجال الدين عن طريق إحياء بعض علوم القدماء التي يمكن أن تفيد منها الكنيسة، وإنما تعدت ذلك إلى الإنشاء والابتكار والتجديد بقصد إشباع غريزة الاطلاع وتثقيف الفكر.

أما العوامل الأساسية التي أدت إلى قيام نهضة أوربية شاملة في القرن الثاني عشر فعديدة ومتنوعة : ـ

---

(١) د/ سعيد عاشور، أوربا في العصور الوسطى، جـ٢، ص ١٢٦ .

(٢) فيليب حتى، تاريخ العرب جـ ٢ ص ١٣٩ .

١ ـ ازدياد النشاط التجاري في شمال إيطاليا مما أدى إلى نمو المدن وتقدم الحضارة والحياة الفكرية.

٢ ـ الاستقرار الذي تمتعت به بلاد غرب أوربا بعد انتهاء الغارات من قبل الفايكنج والمجر من جهة، وأخذت الأوضاع الاجتماعية والسياسية والدينية تنتظم من جهة أخرى. ولا شك أن هذا الاستقرار وما صاحبه من أمن وسلام أدى إلى ازدياد الاتصال الحضاري، كما أدى إلى التفرغ للجوانب الثقافية والحضارية.

٣ ـ العامل الأساسي هو ازدياد الاتصال الحضاري بين غرب أوربا ومراكز المدنية الإسلامية، ويرجع الفضل في ازدهار الدراسات في غرب أوربا إلى المؤلفات العربية العديدة التي ترجمها الأوربيون إلى اللاتينية منذ القرن الثاني عشر[١].

ومهما يكن من أمر فإن حضارة الغرب الحديثة كانت تستمد أصولها من النهضة الإيطالية في القرن الخامس عشر، وهذه ترجع جذورها إلى القرن الثاني عشر، مما يعني ذلك أن حضارة أوربا الحديثة قامت على أساس واضح من الحضارة الإسلامية.

(١) د/ سعيد عاشور النهضات الأوربية في العصور الوسطى وبداية الحديثة ص ١٢٠ ـ ١٢٣ .